

تزايد العنف بتونس: المظاهر والخلفيات

عبد المجيد الجمل
باحث تونسي



قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

على سبيل التقديم:

شهدت تونس تزايداً لافتاً للعنف منذ 14 يناير إلى اليوم. وقد اتخذ ذلك أشكالاً متعدّدة، مثل العنف الماديّ الذي برز من خلال الاعتداء على الفنانين وعلى الأحزاب السياسية، ووصل العنف إلى أقصاه من خلال السحل والقتل. بدا ذلك من خلال سحل لطفي نقض¹، وكذلك اغتيال شكري بلعيد²، والحاج محمد البراهمي³. ولقد مثلت هذه الاغتيالات صدمة عنيفة للمجتمع المدني والقوى الديمقراطية التي لم تكن تتصوّر أبداً أن يصل الصراع والاختلاف السياسي إلى هذا الوضع الدرامي.

إنّ العنف في المشهد السياسي التونسي لم يقتصر على الجانب المادي، بل شمل أيضاً العديد من المظاهر الأخرى، مثل عنف الخطاب الديني والسياسي، حيث استغلّ البعض المنسوب المرتفع جداً للحريّات الدينية والسياسية وكذلك حرية الكتابة والتعبير لنشر خطاب عنيف أسهم في توفير أرضية ملائمة للعنف والحدق بتونس.

وفي هذا السياق، سنحاول أن نتعرّض لمفهوم العنف ومظاهره، وفي القسم الثاني لأسباب تزايد العنف وخلفياته.

¹ - لطفي نقض، رأس الاتحاد الجهوي للفلاحين بتطاوين، بعد عودته من فرنسا، انضم لنداء تونس. تمّ سحله من قبل متظاهرين يوم الجمعة 19 أكتوبر 2012 محسوبين على حركة النهضة وحزب المؤتمر وحركة الشعب.

² - شكري بلعيد (1964-2012)، مناضل يساري عرف بنضاله ضد الديكتاتورية، سواء في الجامعة أو بعد انضمامه إلى سلك المحاماة. وبعد 14 جانفي أسس حركة الوطنيين الديمقراطيين، وكان عضواً في الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي. وقد كان شكري بلعيد بعد 23 أكتوبر 2011 معروفاً بمواقفه النقدية والمتصلبة ضد الحكومة الجديدة. وخصوصاً حركة النهضة، مما جعله يتعرض لحملة منظمة من قبل أئمة المساجد المواليين لحركة النهضة؛ حيث وصل الأمر بالبعض في ولاية قابس إلى حد توزيع المشروبات بعد اغتياله في 6 فيفري 2011

³ - الحاج محمد البراهمي (1955-2013) ولد في 15 ماي 1955 بمنطقة الحشانة بولاية سيدي بوزيد. وحصل على الإجازة في المحاسبة بتونس سنة 1982 بالمعهد الأعلى للتصرف. وعمل مدرساً بمنزل بورقيبة، ثم بالوكالة العقارية للسكنى، ثم هاجر إلى السعودية، حيث عمل عدة سنوات وقام أيضاً بأداء مناسك الحج. تمّ انتخابه في أكتوبر 2011 نائباً بالمجلس التأسيسي ضمن قائمة حركة الشعب ذات التوجهات القومية الناصرية، حيث كان أمينها العام. وعرف بمواقفه المناهضة لحركة النهضة ولحركة الإخوان المسلمين بصفة عامة. وهذا ما جعله يستقيل من حركة الشعب المعروفة بقرب الكثير من قياداتها من حزب النهضة والمؤتمر من أجل الجمهورية. وهذا ما جعل الحاج البراهمي يؤسس في 7 جولية 2013؛ أي قبل اغتياله بحوالي أسبوعين التيار الشعبي القومي الذي أعلن انضمامه إلى الجبهة الشعبية، مما دعم قوى المعارضة اليسارية. وزاد في عزلة حركة النهضة. وقد تم اغتياله يوم 25 جولية بحي الغزالة بتونس العاصمة مما مثل ضربة جديدة للانتقال الديمقراطي وعمق الأزمة السياسية بتونس.

التعريف بالعنف ومظاهره:

1- مفهوم العنف وجذوره:

(أ) مفهوم العنف:

لغة: عنف يعنف عنفاً عليه، أخذه بشدة وقسوة. والمقصود بالعنف: "استخدام القوة استخداماً غير مشروع وغير مطابق للقانون"⁴، أما أندري لالاند، فيقدم أيضاً تعريفاً قريباً من التعريف اللغوي، فقد اعتبره "الاستعمال غير المشروع، أو على الأقل غير القانوني للقوة"⁵.

أما على المستوى الجنائي، فإن البعض يعرفه بأنه المسّ بسلامة الجسم حتى لو لم يكن جسيماً، بل كان في صورة تعدّ إيذاء، في حين يعرفه آخر في تجسيد الطاقة والقوى الماديّة في الإضرار الماديّ بشخص آخر. وآخرون يعرفونه "بأنه الجرائم التي تستخدم فيها أيّة وسيلة تتسم بالشدّة للاعتداء على شخص الإنسان أو عرضه".

أما على المستوى السياسي، فيقصد بالعنف: "كلّ سلوك يخرج عن القانون ويريد التأثير في العمليّة السياسيّة من خلال استعمال القوة أو التهديد باستخدامها لتحقيق أهداف سياسيّة أو التأثير في سياسة الحكومة أو الأطراف المرتبطة بها".

(ب) جذوره:

إنّ العنف بصفة عامّة ظاهرة قديمة. **أما على المستوى السياسي،** فإنّ التاريخ العربي يعجّ بأحداث العنف والاعتقالات، فمثلاً تأسيس نظام الخلافة الإسلامية، رافقه العديد من مظاهر العنف، ومن بينها ما وقع لسعد بن عباد الذي اعتبر أنّ "الأنصار" أولى بالخلافة، لكنّ القرشيين بقيادة عمر رفضوا ذلك. وفي هذا السياق، لا بدّ من التذكير بأنّه قبل أن يتمّ دفن الرسول محمد بن عبد الله، دار صراع عنيف على السلطة، حيث انتقل العديد من أنصار الرسول الأكرم إلى سقيفة بني ساعدة، وبدؤوا يتحاورون حول مسألة انتقال السلطة، فسمع عمر بذلك، فالتحق إلى جانب أبي بكر بالسقيفة، ممّا جعلها تتحوّل إلى حلبة صراع وعنف سياسيّ غير مسبوق.

⁴- المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1989، ص 872

⁵- André (L), Vocabulaire technique et critique de la philosophie, PUF, 1210 Paris 1996, p

2- تنوع أشكال العنف بتونس:

(أ) العنف السياسي: برز على العديد من المستويات من بينها

الاغتيال السياسي: يعتبر من أكثر أشكال العنف التي هزت تونس بعد 23 أكتوبر 2011، وذلك من خلال اغتيال لطفي نقض بتطاوين يوم 19 أكتوبر 2011، حيث مثل أول اغتيال سياسي بعد الثورة. ولقد أعلن عن منحرج جديد في العلاقات بين الفرقاء السياسيين، والأخطر من ذلك أنّ من قاموا باغتياله محسوبون على الأحزاب الحاكمة.¹⁰

أما الاغتيال الثاني، فقد كان للمناضل اليساري شكري بلعيد في 6 فيفري 2012. وأيضاً للمناضل القومي اليساري الحاج محمد البرهمي في 25 يوليو 2013.

إنّ ظاهرة الاغتيالات السياسية هزت المجتمع التونسي، بل جعلت الكثير منهم يحنّ إلى الديكتاتورية. ولقد تجسّم موقف الشعب التونسي المناهض للعنف السياسي من خلال تشييع مئات الآلاف لجنزة كلّ من شكري بلعيد وكذلك الحاج محمد البراهمي، حيث فاقت الأعداد كلّ التوقعات، ممّا جعل العديد من الميليشيات المحسوبة على "الترويكّا" تواجه الأعداد الضخمة التي رافقت جنازة شكري بلعيد بعنف غير مسبوق، من خلال حرق سيارات العديد من الشخصيات السياسية والنقابية. ومن خلال رمي "القنابل المسيلة للدموع" بالمقبرة.¹¹ وبالرغم من إيقاف وزارة الداخلية لعدّة عناصر، فإنّ مسؤولية ذلك العنف لم تحدّد بعد، وتمّ تناسيها، ممّا يؤكد أنّ للحكومة دوراً في هذا العنف بشكل أو بآخر.

لقد برز العنف السياسي أيضاً من خلال العنف الماديّ الذي مورس ضدّ العديد من الشخصيات السياسية، مثل الأستاذ عبد الفتاح مورو المحسوب على النّيّار الليبرالي الإصلاحي داخل حركة النهضة، فقد تمّ الاعتداء عليه أكثر من مرّة من قبل السلفيين، وكاد يقتل. وبرز العنف أيضاً من خلال الاعتداء على اجتماعات أحزاب المعارضة، مثل حركة الوطنيين الديمقراطيين بالكاف، قبيل اغتيال شكري بلعيد بفترة قصيرة.

إنّ هذا العنف شمل كذلك العديد من أفراد المؤسسة العسكرية والأمنية. ولعلّ الاعتداء على ثمانية جنود من الجيش الوطني التونسي في أواخر شهر أوت 2013 بجبل الشعانبي، مثل حلقة جديدة مفرّعة وخطرة من علاقات العنف والاغتيال السياسي. كما قتل العديد من أعوان الحرس والشرطة... ومن بينهم الملازم أول كريم الفرشيشي والعريف كريم حامدي يوم 18 أكتوبر 2013 بمنطقة دوار إسماعيل بمنطقة باجة.¹²

¹⁰ - جريدة الصباح 20 أكتوبر 2012

¹¹ - جريدة المغرب 10 أفريل 2012

¹² - جريدة الشروق 19 أكتوبر 2013

لم يقتصر هذا العنف على المعارضة، بل شمل أيضاً الأحزاب الحاكمة من خلال طرد الرؤساء الثلاثة من سيدي بوزيد في يناير 2013. ومن خلال حرق مقرّات حركة النهضة بالعديد من الولايات.

إنّ العنف السياسي بتونس برز على مستوى الخطاب؛ فالعديد من الأحزاب السياسية كان خطابها عنيفاً، يتنافى مع قيم الديمقراطية الحديثة، فمثلاً عبد الكريم الهاروني وزير النقل التابع لحركة النهضة صرّح يوم 30 سبتمبر بما يلي: "لا تنتظروا استقالة الحكومة، ولا تضيعوا وقتكم؛ لأنّ الأمانة التي حملنا الله إيّاها أمرنا ألا نوّديها إلا لأهلها، وهذا أمر إلهي، وهو فوق الدستور وفوق القانون...."¹³. فماذا يعني هذا؟ إنّه عنف ضدّ المعارضة التي ثارت ضدّ بن علي لتكريس نظام ديمقراطي مدني. إنّه عنف أيضاً ضدّ من انتخبوا النهضة من أجل بناء نظام ديمقراطي.

إنّ عبد الكريم الهاروني بهذا الخطاب يوجّه عنفاً ضدّ الله ما دام حكمهم بتفويض ربّاني وليس بتفويض شعبي. وهذا العنف برز أيضاً من خلال تسمية المخالفين في الراية والمعارضين بجماعة صفر فاصل، وأنّ النهضة ستنتصر في كلّ الانتخابات القادمة.

(ب) العنف الديني: شهدت البلاد التونسية منذ شهر يناير 2011 تزايداً للعنف غير مسبوق، برز ذلك من خلال انتشار الخطاب التكفيري الذي لم يقتصر على المتطرفين، بل شمل أيضاً بعض الأطراف الرسمية. ولقد ظهر ذلك من خلال دعوة أحد العاملين بوزارة الشؤون الدينية لشعار الموت للسبسي، ممّا فاجأ المعارضة بمختلف أطيافها، التي بالرغم من اختلاف الكثير منها مع الباجي قايد السبسي، فإنّها تضامنت معه، واعتبرت أنّ هذا الموقف الرسمي لشخصية معروفة بولائها للحكم القائم.¹⁴

لقد برز أيضاً هذا العنف من خلال تكفير العديد من المناضلين وتهديدهم بالموت، فمثلاً بعض العناصر المحسوبة على السلفيين بمدينة جرجيس هدّدت شكري بلعيد و أحمد نجيب الشابي بالموت إذا وطنت أقدامهم جرجيس.

(ج) العنف الديني السياسي برز أيضاً من خلال الاعتداء على العلم التونسي، والهجوم الكاسح على الدولة وتهديد كيائها. فالسلفيون يعتبرون أنّ الدولة القطرية الحالية بتونس وبقية البلدان تتناقض مع الدين. ولقد تجسّد ذلك أيضاً من خلال وصف العاملين بالجيش الوطني والحرس بالطواغيت الذين يجب قتلهم.¹⁵

¹³- جريدة الصريح 1 أكتوبر 2013

¹⁴- المصدر السابق نفسه

¹⁵- جريدة المغرب 21 أوت 2013

إنّ العنف الديني السياسي برز من خلال استغلال المساجد وترويج خطاب إعلامي ديني يتناقض مع تطلعات الكثير من المصلّين، واتهام منظمات المجتمع المدني، مثل الاتحاد العام التونسي للشغل بالكفر والدعوة إلى قتل رموزه، مثل السيد حسين العباسي. وبرز هذا العنف أيضاً من خلال تصريحات العديد من رموز تيارات الإسلام السياسي، ومن بينهم السيد رضا بلحاج، رئيس حزب التحرير بتونس، فأثناء مؤتمر حزبهم في جوان 2012 ذكر أنّ "نظام الخلافة واجب، مثل الصوم والصلاة"، وأنّ الديمقراطية تتنافى ومبادئ الإسلام. وذكر أيضاً أنّ التأسيسي كمؤسسة منتخبة لكتابة الدستور "خصمنا أمام الله"¹⁶.

إنّ ما قاله السيّد رضا بلحاج خطير جداً، فهو يعني أنّ المسلم الذي لا يناضل من أجل إرساء نظام الخلافة يرتقي إلى درجة الكفر. ألا يعتبر هذا عنفاً ضدّ بقية التونسيين: مسلمين، ويهود، ومسيحيين، وغيرهم، الذين يعتبرون أنّ الديمقراطية ومؤسسات الدولة الحديثة لا تتنافى مع الإسلام؟

(د) العنف الرمزي: لقد كان العنف الرمزي، ولا يزال، أحد سمات العديد من الأحزاب، ومن بينها حركة النهضة التونسية التي بالرغم من كونها أعلنت مناهضتها للعنف وإيمانها بالتغيير الديمقراطي والتداول على السلطة، لكنّها على أرض الواقع تعتبر امتداداً لتيّار الإخوان المسلمين الذي يتكوّن شعاره المركزي من سيفين حادّين لامعين، تتوسّط مقبضيهما من الأسفل كلمة: "وأعدوا"، وتحيط بها كلمة "الإخوان" يمينا، و"المسلمون" يساراً، وتتصدّر حدّيهما من الأعلى صورة المصحف. ألا يعتبر ذلك عنفاً رمزياً يتناقض تماماً والانتقال الديمقراطي كما تنتشده المجتمعات المدنية بتونس والوطن العربي عموماً؟¹⁷ هو بالتأكيد كذلك، واليوم من يتبنّى هذا الشعار، فإنّه ينذر معارضيه بالويل والثبور وعظائم الأمور، إنّه يعتبرهم جزءاً من مجال الجهاد.

خلفيات العنف:

1- الأزمة الهيكلية للديمقراطية بتونس وبالوطن العربي:

لقد برز ذلك من خلال غياب التربية الديمقراطية عن أغلب القوى السياسية والمدنية، وكذلك من خلال العنف الذي مارسه الإسلاميون ضدّ خصومهم اليساريين. والشيء نفسه بالنسبة إلى اليساريين والليبراليين ضدّ خصومهم الإسلاميين.

إنّ العامل الهيكلي يعتبر حالياً من أبرز معوقات الانتقال الديمقراطي وعوامل العنف؛ فأغلب القوى، سواء الموجودة بالسلطة أو المعارضة لا تؤمن بالديمقراطية وحقّ الاختلاف. فبالنسبة إلى أغلب تيّارات الإسلام

¹⁶ - جريدة الشروق 25 جوان 2013

¹⁷ - مصطفى القلعي، حركة النهضة الإخوانية، الأصول والمرجعيات والولاء، نشرت هذه المقالة بـ "الفكرية" سبتمبر 2013، العدد 10

السياسي، فإنّها ترفضها بوضوح، بل تعتبرها من إنتاج الغرب "الكافر"، ويجب التّشبّث بنظام الخلافة، ومن بين المنادين بذلك حزب التحرير بتونس والسلفيّون. أمّا بالنسبة إلى حزب النهضة، فإنّه من الأحزاب القليلة التي تعتبر أنّ الديمقراطية على الطريقة الغربية لا تتناقض مع الإسلام. ولقد أكّدت حركة النهضة ذلك من خلال مساهمتها في مجلس تأسيسي مدني ومشاركتها قبل 14 يناير في جبهة 18 أكتوبر التي كان بعض أطرافها شيوعيين، مثل حزب العمال الشيوعي بقيادة حمّة الهمامي، لكنّها بعد انتصارها في انتخابات 23 أكتوبر 2011، تنكّرت لكثير من مبادئ الجبهة السابقة الذكر، من ذلك أنّها صارت تعارض المساواة بين المرأة والرجل. وفي هذا السياق، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ حزب النهضة غير متجانس في هذا المجال، وقسم كبير من قواعده لا يؤمن بالديمقراطية، ولا تختلف مبادئه كثيراً عن مبادئ السلفيّين.

أمّا بالنسبة إلى القوى اليساريّة، فإنّ أغلبها حالياً بصدد مراجعة أطروحاته، لأنّ اليسار التقليدي الماركسي (من أتباع لينين أو ستالين أو ماوتسنغ)، كانوا يعتبرون الديمقراطية بمفهومها الليبرالي تحريفاً للفكر الشيوعي. ولا ننسى أيضاً أنّ التجارب القومية من ناصرية، وبعثية، أو حتى تجربة العقيد معمر القذافي، كلّها لم تؤسّس للديمقراطية. والشيء نفسه بالنسبة إلى التجارب الليبرالية بتونس، والجزائر والمغرب، فكّلها لم تفرز أنظمة ديمقراطية.

2- الأزمة الدينية:

من بين أسباب تزايد العنف الخطاب الديني "التكفيري" على منابر المساجد؛ فهو يروج أنّ مسألة الديمقراطية "حرام" وتتناقض مع الإسلام. ومن أكثر الأئمة الذين يروجون لهذا الخطاب أنصار التيار السلفي وأنصار حزب التحرير¹⁸، مع العلم أنّه تمّ الاعتداء حتى على الأئمة المناهضين لهذا التوجّه، فمثلاً يوم الجمعة 22 نوفمبر 2013¹⁹ في أحد المساجد بمنطقة ميدون التابعة لولاية مدنين تمّ الاعتداء على الإمام المعين من قبل وزارة الشؤون الدينيّة، وتنصيب إمام سلفي. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ هناك أكثر من مائة مسجد حالياً تحت سيطرة أئمة سلفيين²⁰. إنّ عنف أئمة المساجد وخاصة الموالين للنهضة طال كلّ المعارضين والكثير من منظمات المجتمع المدني، مثل الاتحاد العام التونسي للشغل.

¹⁸ - جريدة الشروق 25 جوان 2013

¹⁹ - تانيت براس، 22 نوفمبر 2011

²⁰ - جريدة المغرب 25 أبريل 2012 جريدة المغرب 26 نوفمبر 2013



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com